

جناح متمرّد



بشينة خليفة قاسم

كاتبة من البحرين

بالحب وحدّه

لأنها حرية
مسؤولة تحترم
حريات الآخرين
.. فإنك لن
تكتسبها بالصخب
أو العنف أو
التوتر، بل
بالحب وحدّه

■ في أعماق كل منا قوة، هي التي تسيطر على أفعاله ونواياه وتصرفاته .. وهي التي تأمر وتنهى، وهي التي تريد ولا تريد ..

هذه القوة هي سر الحياة .. بل هي الحياة ذاتها، من فهمها وعرف كيف يتفاعل معها فقد عاش حياته .. ومن لم يفهمها ولم يتجاوب مع متطلباتها، بقي معلقاً بين الحياة والموت. والتجاوب مع هذه القوة أو التفاعل مع متطلباتها ليس معناه الخضوع التام لها أو الاستسلام الكلي لمشيئتها، فهي ليست قوة خيرة مطلقة، بل شريرة أيضاً .. إنها زوجية الفعل .. فكما أنها خلقة ومبدعه من جانب، فهي هدامه ومدمرة من جانب آخر.

والفهم الصحيح لهذه القوة يتطلب صحوّة تامة وتفكيراً هادئاً وحساً مستعداً للتمييز .. إذ إن مجرد محاولة فهمها من غير استعداد ويقظة قد ينجم عنه إحباط وتشوش وسوء تقدير، وربما استنتاج عكسي أيضاً ..

والتجاوب المقصود معها يعني التجاوب مع الجانب الأبيض منها فقط .. الجانب المشرق .. جانب الخير .. والإنسان الشرقي يملك هذه القوة شأنه شأن بقية شعوب الأرض، إلا أنه مع الأسف، كلما ناداه الجانب المشرق منها وحاول الاستجابة له والتفاعل معه، شده الجانب المعتم وبرز له في هيئة قوى معارضة متسلطة هي التي يدعوها بالعادات والتقاليد ..

هذه العادات والتقاليد جعلت من الإنسان الشرقي عبداً .. لقد ظل في أسرها قروناً طويلة ومازال .. فهو إذن لا يحيا حياته كما تريد له الحياة ذاتها .. ولم يتفاعل مع الجانب المشرق من تلك القوة كما ينبغي .. بل هو يتحرك في إطار هذه العادات والتقاليد التي تأمره بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا .. وهذه هي العبودية بعينها ..

الإنسان بطبيعته حر، والحرية نقيض العبودية .. الحرية جوهر مقدس، ومن لا يقربها أو لا يرتضيها لأخيه الإنسان فهو خارج على القانون الإلهي، متمرّد على الحياة، ومن يتمرد على الحياة فهو ليس منها ..

الحياة ترفض كل ما هو ثعلبي .. وكل ما هو ضبابي، طبيعتها النقاء والصفاء، لذلك فهي تؤكد الحق .. وتؤيد الحق .. وتبارك الوضوح .. وتدعو إلى الاستقامة ..

الحياة تريد الصدق في القول والعمل وحتى النوايا، وهي ترفض الاغوجاج والفسوق .. إنها جميلة وتريد الجمال لكل ما فيها ومن فيها .. وكما يحب الإنسان الجمال في مظهره تريد له الحياة أن يحببه في مخبره، في جوهره، في نفسه .. وجمال النفس هو أن يكون الإنسان إنساناً بمعنى الكلمة .. أن يقدر إنسانيته، أن يحترم ذاته .. ولا يمكن للإنسان أن يحقق احتراماً لذاته إلا في ظل الحرية ..

الحرية إذن هي المبتدأ .. هي المدخل .. وهي حجر الأساس .. وبما أن حجر الأساس في البناء هو الذي يقرر مدى صلاحية هذا البناء واستعداده للصمود أمام عوامل الطبيعة، فإن عملية تشييده ووضعها تتطلب مجهوداً مضمناً ووقتاً طويلاً وربما توضيحات مادية ومعنوية أيضاً .. وكذلك الحرية ..

إنها مطلب عزيز، والوصول إليها يستوجب وجود القناعات الكافية بها .. والقناعات تتطلب عملاً فكرياً شاقاً، وتوضيحات روحية وجسدية لا حصر لها .. فمع أن الحرية في داخلنا إلا أنها ليست قريبة منا، مثلها مثل أية خلية من خلايا

الجسم ..

هل تستطيع التعرف على خلية ما من جسمك بعد انتزاعها من موضع وزرعها في موضع آخر ؟ قد يجوز، ولكن بعد ماذا؟!

الحرية ثمرة الهدوء والتأمل والخلوة .. وهي لا تولد في الضجيج أو تنبع من التشنجات .. والذين يدعون إلى العنف في سبيل انتزاع الحرية هم المتشجنون وحدهم .. أولئك النفر من الناس الذين عاشوا وسط الصخب والضجيج أيام الهيمنة الاستعمارية ..

حمى التشنج والتوتر صورت لهم الاستقلال الإقليمي حرية .. وهم معذورون في ذلك .. فالذي يعيش في ظلام دامس يتوهم الإشعاعات الفوسفورية نورا ..

العاطفة لا تلد الحرية ولا حتى تنبئ الطريق لها .. ولكنها قد تُندها أو تجهضها .. وهذا ما يحدث أحياناً في شرقنا وبالأخص في عالمنا العربي .. انظر حوالبك، وتامل .. أو لم تركيف فعلت العاطفة بالناس بمجرد وصول الرؤوس الكبيرة إلى المراكز العليا هناك ؟ أو لم تركيف حولت مفهوم الحرية إلى استبداد واستعباد ؟ أو لم أقل لك إن الإشعاعات الفوسفورية ليست نورا .. وإن القوة التي في داخلك ليست خيرة مطلقة ؟ وإنما كما تؤدي إلى الخلق والإبداع، تؤدي إلى الهدم والتدمير ؟

الحرية التي نعني إذن ليست الحرية الإقليمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، بل الحرية المطلقة .. تلك التي عنها ذلك البدوي المتأمل في هدوء وروية : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) .. تلك هي الحرية التي نعني .. الحرية الفطرية التي عنها عمر بن الخطاب .. هل تريد أن تحيها دون أن ينازحك عليها منازع، هل تريد الاغتسال بضوئها دون أن ينهرك أحد أو يعرضك معترض ؟ إذن أنت لديك القناعة الكافية بها ..

استرخ قليلاً .. جرد نفسك من كل همومها وآلامها .. انس متاعبك اليومية ومصروفات العيال وإيجار البيت وفاتورة الكهرباء .. تنفس بعمق، وحدق في السماء .. هل تعرف ما أنت ؟ أنت حديث الولادة ..

وكل ما يحيط بك من سماء ونجوم وطير وشجر وماء حديث الولادة أيضاً .. هل تحس لمس النسيم وهو يصفح وجنتيك ؟ هل تشجيك أصوات الطيور وهي تغرد متنقلة من غصن إلى غصن على الأشجار ؟ هل يطربك خرير الماء وهو يجري في جدولته ؟ هل ترى ضوء النجوم وهو ينصب كاللؤلؤ المنثور على أحضانك ؟

أحب كل ذلك .. أذب نفسك مع كل نقطة ضوء، وترنيمة طير، وهمسة نسيم، وقطرة ماء .. أرخ نفسك على أحضان الطبيعة فهي تحبك، استمع إلى ذلك الصوت العميق الخارج من أعماقك .. إنه نداء الروح .. إنه يدعوك للانعتاق .. للانسلاخ .. للتحرر من كل قيود الماضي والحاضر .. فاضرب الأرض بقدميك واشمخ بهامتك في السماء، فأنت حر .. أنت حر .. أنت حر .. تأكد من هذا المعنى وتيقن من حريتك .. وتذكر أنها ليست ملكك وحدك، إنها ملك الكون بأكمله، فاحترمها فإنها حرة مسؤولة، عاقلة تعرف حدودها.

ولأنها حرية مسؤولة تحترم حريات الآخرين .. فإنك لن تكتسبها بالصخب أو العنف أو التوتر، بل بالحب وحدّه ■